2014; 10(2):50-73

Omdurman Islamic University Journal(OIUJ)

مجلة جامعة أم درمان الإسلامية

<https://journal.oiu.edu.sd/index.php/oij>
<https://doi.org/10.52981/oij.v10i2.1656>

ISSN: 5361-1858

استراتيجية قريش في صنع السلام والمحافظة عليه

د. جعفر خلف الله شبو*

مستخلص البحث

طوت قبيلة قريش صفحة البداوة عندما استقرت بمكة المكرمة حوالي منتصف القرن الرابع الميلادي. وبحكم جغرافية المكان أدركت قريش أن التجارة هي قوام حياتها في تلك المنطقة القاحلة، ولكن لا قوام للتجارة دون توفر الأمن والسلام. فلم يتدخّر القرشيون وسعا في طلبهما عن طريق خطة إستراتيجية بديعة لصنع السلام والمحافظة عليه في آن واحد. بنت قريش إستراتيجيتها أولاً على إشاعة الرضا والتكافل داخل الكيان القرشي من خلال إدارة جماعية وإيلاف داخلي؛ ومن ثم تأمين تجارتها من خلال إشراك القبائل القاطنة على امتداد الطريق بين جنوب الجزيرة العربية وشمالها في المشاريع التجارية، ومن خلال معاهدات تجارية مع عواهل الدول المجاورة آنذاك. أما الإستراتيجية القرشية للحفاظ على السلام فقامت على تجنب النزاعات وتقادي الحروب واستغلال الدين الوثني في خدمة المصالح التجارية واصطناع الحلفاء والأصهار لدى القبائل الكبرى. ولقد نجحت الإستراتيجية القرشية فتبوءت قبيلة قريش مرتبة مرموقة أهلتها لتأسيس دولة عظمى تحت ظلال الإسلام الوارفة في القرن السابع الميلادي.

Abstract

Around the 2nd half of the 4th century, the tribe of Qureish gathered in the holly city of Makkah. As the region was dry, arid and dehydrated, trade was the only possible profession but it required peace and security which were difficult to attain. Qureish needed to build a special strategy to achieve peace at that bloody time.

Qureish designed it strategy to realize satisfaction and solidarity among the tribe people throw setting up a collective administration and an internal Ellaf (docility). The strategy included avoiding conflicts and wars, utilizing the pagan religion in the service of trade, forming allies and concluded marriages with the big Arabic tribes. Although it was not an easy task, the Qureishis strategy succeeded and the tribe became a prominent figure in Arabia. The ripe fruit of that endeavor work was the establishing of the great Islamic State under the shades of Islam in the 7th century AD.

* أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية – جامعة أم درمان الإسلامية

مقدمة:

لعب مناخ منطقة الحجاز القاري وتربتها الرملية الصخرية وشح مياهها وموقعها المتوسط بين أقدم الحضارات دوراً جوهرياً في توجيه سكانها لطلب معاشهم في حرفة غير الزراعة التي لا تلائمها الظروف المناخية فاتجهوا للتجارة ونبغوا فيها. ولقد كان القرشيون أعظم أهل الحجاز كسباً في هذا الشأن لوجودهم بمكة المكرمة حاضرة تجارة العرب قبل الإسلام ومحجها الأكبر، فتنبلور لديهم حساً تجارياً مرهفاً ومعرفةً جيدةً بما يدور حولهم.

أدرك القرشيون مبكراً أن التجارة لا يمكن أن تزدهر وتثمر إلا في محيط مستقر وآمن، وكانت جزيرة العرب آنذاك أبعد ما تكون عن الأمن والسلام والاستقرار؛ لم يستسلم القرشيون للأمر الواقع فنشطوا لجلب السلام على عدة محاور، وعقدوا الاتفاقيات وأبرموا معاهدات وأحلاف مع الكيانات السياسية واسترضاء الأعراب بمدح حبال الوصل مع سادتهم وأشرفهم. ولم تعتمد قريش قبل الإسلام على القوة في تيسير مصالحها التجارية بقدر اعتمادها على سياسة اللين والمفاوضة، فلا يكاد التاريخ يحدثنا عن حروب حقيقية خاضتها قريش اللهم إلا حروب الفجار التي كانت في معظمها مناوشات تنتهي بالصلح، كما أن مكة المكرمة معقل القرشيين تخلو من الحصون والقلاع التي كانت تنتظم معظم المدن في ذلك الوقت. اتضح من خلال البحث والتقصي واستكناه المصادر أن القرشيين في سعيهم الدؤوب لإرساء قواعد السلم والمحافظة عليه، انطلقوا من إستراتيجية واضحة المعالم بدأت بإشاعة الرضا وتحقيق الوثام والتكامل داخل المجتمع القرشي من خلال النظام الإداري للكيان القرشي والإيلاف الداخلي الذي جعل من القرشيين تجاراً خلطاء. وتم توظيف الدين الوثني في تلك الإستراتيجية من خلال نظام الحس ونظام الرفاة والسقاية، وإعلاء شأن الأشهر الحرم ووضع أصنام القبائل حول الكعبة. ثم أشركت قريش القبائل العربية في مشاريعها التجارية لتأمين مسيرة قوافلها بعد أن أبرمت المعاهدات التجارية مع الدول الكبرى في ذلك الزمان.

ولكي يصبح السلام مستداماً عقدت الأحلاف والمعاهدات ووسعت نظام الحس ليشمل الحلفاء والأصهار. وليحافظ القرشيون على كسبهم المادي والمعنوي عقدوا حلف الفضول الذي حفظ للمدينة المقدسة سمعتها الطيبة وللقرشيين مكانتهم السامية ضمن إستراتيجية قريش في صنع السلام وحفظه. جاء هذا البحث في إستراتيجية قريش في صنع السلام وحفظه في ثلاثة فصول، اختص الفصل الأول منها بسيادة الكيان القرشي في المدينة المقدسة وقيام هياكل النظام الإداري وتوظيف كل ذلك لخدمة التجارة. أما الفصل الثاني فقد تناول إستراتيجية قريش في صنع السلام وتوسيع دائرة الأمن بإشراك الآخرين في المشاريع التجارية بعد أن حقق إيلاف قريش الداخلي الرضا والوثام داخل المجتمع القرشي، وناقش الفصل الثالث الإجراءات العملية التي اتبعتها القرشيون للمحافظة على الأمن والسلام الذي ساد في ربوعهم بعد كفاح طويل. ومن تلك الإجراءات التمسك الشديد بسياسة اللين والمفاوضات والتزام الحياد في النزاعات التي تنشب بين القبائل بعضها بعضاً وكذلك بين الكيانات السياسية ذات الصلة بتجارتهن. كما أبرموا الأحلاف للتصدي الجماعي للمنحرفين والخارجين على روح الإستراتيجية السلمية. واختتم البحث بإبراز النتائج المهمة التي توصل إليها الباحث مع إيراد عددٍ من التوصيات التي تخدم قضية البحث العلمي في هذا المضمون.

الفصل الأول

قيام الكيان القرشي

المبحث الأول: سيادة قريش على البيت الحرام

يرى غالبية المؤرخين أن شهرة مكة كبلد مقدس أخذت تتبلور على عهد الفطوريين، وهم العماليق عند أهل الأخبار، فقد قطنوا مكة وعظموا البيت وعشروا الوافدين إليه بغرض الحج أو التجارة وكان عليهم السميذغ بن هوثر⁽¹⁾. وفي فترة لاحقة قبل عهد نبي الله إبراهيم الخليل جاء بنو جرهم بقيادة زعيمهم المضاض بن عمرو من اليمن ونزلوا على فطورا وتحالفوا معهم وأقاموا بقيقعان جنوبي مكة فكان السميذغ يعشر الوافدين إلى مكة من أسفلها (الشمال) والمضاض يعشر الداخلين من أعلاها (الجنوب)، وكان الناس يتوافدون إلى مكة تجارا وحجاجا ويدفعون العشور لولي الأمر فيها⁽²⁾.

لم يدم تحالف العماليق وجرهم طويلا فيحدثنا الإخباريون أن حروبا طاحنة دارت بين الفريقين إنتهت بهزيمة العماليق وجلاءهم عن الحجاز وإنفراد جرهم بالسيادة على البلد الحرام. وفي هذه الفترة قدم إبراهيم عليه السلام وزوجته هاجر وابنه إسماعيل وقاما برفع قواعد الكعبة كما جاء في القرآن الكريم، قال تعالى "وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل"⁽³⁾. سورة البقرة آية 127.

وتزوج إسماعيل ببنت الحارث بن مضاض سيد جرهم ومنهت كان نسله وهم العدنانيون وإليهم تنتسب قبيلة قريش. وقبيل إنهيأر سد مأرب جاءت قبيلة خزاعة من اليمن وقدموا إلى مكة بأعداد غفيرة، ورؤساءهم يومئذ بنو حارثة بن ثعلبة وكانوا يتعاطون الكهانة وكان أحد كهنتهم قد تتبأ بإنهيأر سد مأرب وعندما تكاثرت أعدادهم وقويت شوكتهم طردوا بني جرهم بمعاونة العدنانيين والكنانيين، أسلاف قريش، ودانت لهم مكة وشاركهم الكنانيون بالإشراف على بعض أعمال الحج كالإجازة والإفاضة والنسئ⁽⁴⁾. ولأحد زعماء خزاعة وهو عمرو بن لحي ذكر مستقيض لدى الإخباريين، فقد كان يتعاطى الكهانة ويختلف إلى بلاد الشام تاجرا وهو الذي أدخل عبادة الأصنام بمكة وغير الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام. يروي أهل السير والأخبار أن عمرو بن لحي جلب من الشام أصناما وتمائيل جيدة النحت صنعت بأيدي فنية قديرة فوضعها حول الكعبة منها: هبل واللات والعزى ونائلة وإساف ويغوث ويعوق ونسرا، وعلى يديه توسعت عبادة الأوثان وتوافد العرب على مكة من كافة القبائل حجاجا وتجارا وازدادت شهرة مكة كمدينة مقدسة. ولقد ندم بنو جرهم على تفريطهم في أمر مكة بعد أن عرفوا بها رغد العيش وهناءه ونلمح رنة الحزن هذه في أبيات شعر تنتسب للحارث بن مضاض منها قوله:

وكنا ولات البيت والقاطن الذي

يؤدي إليه نذره كل محرم⁽⁵⁾

ولأهل الأخبار روايات متعددة في تعليل كثرة أسماء مكة ومن زارها معظما من ملوك الأرض وذكروا فيهم الإسكندر الأكبر وساسان بن بابك وملوك حمير والتبابعة. وعلى الرغم من تهافت بعض هذه الروايات إلا أنها تدل على استفاضة شهرة مكة وعلو مكانتها.

أما قريش فقد بدأت شوكتها تقوى على عهد كعب بن لؤي الجد الثالث لقصي بن كلاب، فتذكر المصادر أنه كان رئيسا مقدما في قريش يخطب الناس في المواسم وتزوج حفيده كلاب والد قصي بفاطمة بنت سعد بن سيل من ولد عامر بن الجادر سيد قضاة والذي كان موكلا بإصلاح ماشعت من جدر الكعبة وهو عمل جليل لا يسند إلا إلى شريف مطاع، فأنجبت إبنة الجادر قصي بن كلاب القرشي العدناني سليل إسماعيل بن خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام. وعندما قويت شوكة قريش بمكة نشب صراع بين القرشيين وقبيلة صوفة التي كانت تتولى بعض أعمال الحج لخزاعة وتسيء معاملة الحجاج. وقد تمكن قصي بن

كلاب من الحصول على تأييد ودعم بني كنانة و أصهاره من قضاة وبني عذرة وهم من القبائل اليمنية التي استوطنت الشام وخضعت لحكم الرومان وربما يفسر هذا ما أورده الطبري من أن الروم ساعدوا قصيا في حربهم ضد خزاعة التي انضمت إلى قبيلة صوفة. فالحق قصي وحلفاءه بخزاعة هزيمة ساحقة وأجلوهم عن مكة. أما الرواية الشائعة حول صفقة أبي غبشان الخزاعي الذي باع لقصي حق قبيلته في الولاية على البيت بزق خمر وقعود فلا تفسر كل الأمر. وعندنا تداعى الناس للصلح حكموا في الدماء عمرو بن بكر بن عبد مناة فحكم بحق قصي في الولاية على البيت، وشدخ الدماء التي أصابها قصي من خزاعة فلقب بعمرو الشداخ⁽⁶⁾

بعد أن تمت الغلبة لقصي على خزاعة، جمع قومه من الشعاب والأودية والجال إلى مكة فبنوا المساكن وأقاموا بها وكان من قبلهم لايبيتون بمكة بل يكونون بها نهارا فقط، فلم يكن بمكة مبيت قبل قصي بن كلاب⁽⁷⁾. ولقد قام قصي بن كلاب بأعمال هامة كان لها أبلغ الأثر في استقرار قبيلة قريش ونهضتها بمكة المكرمة، ويأتي توفير الماء على رأس هذه الأعمال فقد أوتي الرجل إلى جانب مواهبه الكثيرة ملكة اكتشاف أماكن الماء في باطن الأرض وهي ملكة ظلت تعرف لأبناء قصي وأحفاده، فقد ورثها عنه ابنه عبد مناف وحفيده عبد المطلب الذي اكتشف بئر زمزم قبيل مولد النبي محمد صلى الله عليه وسلم. حفر قصي الآبار داخل مكة بعد أن كانت تشرب من خارجها⁽⁸⁾. وتذكر المصادر أن قصيا جدد بناء الكعبة وسقفها بخشب الدوم وجريد النخل ووقف بمزدلفة وأوقد بها النار ليراها من دفع من عرفة ومازال إيقاد النار بمزدلفة سنة ماضية إلى يومنا هذا.

ومن أعمال قصي الخالدة "الرفادة" وهي الطعام الذي ترفد به قريش حجاج بيت الله، فكل قرشي يخرج بقدر طاقته تنفيذا لطلب قصي الذي قال لهم: "يامعشر قريش إنكم جيران الله وأهل مكة والحرم وإن الحجاج ضيوف الله وزوار بيته وهم أحق بالضيافة فاجعلوا لهم طعاما وشرابا أيام الحج حتى يصدروا عنكم"⁽⁹⁾. ويذكر أن قصيا أول من أصاب الملك من ولد إسماعيل فكان معاصرا لأيام النعمان بن المنذر ملك الحيرة وبهرام بن جور إمبراطور الفرس في النصف الأول من القرن الخامس الميلادي.

يعد قصي بن كلاب المؤسس للكيان القرشي، الجد الخامس لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فقد جمع قريش من بطون فهر بن مالك كما يقول الشاعر:

قصي أبوكم من يسمى مجمعا

به جمع الله القبائل من فهر

فالإقصي يرجع الفضل في جمع قريش وترتيبها على منازلها بمكة، فقريش البطاح هم البطون التي نزلت بطحاء مكة أي بطن واديها وهم بنو عبد مناف وبنو عبد الدار وبنو عبد العزى وبنو زهرة وبنو تيم وبنو مخزوم وبنو جمح وبنو سهم وبنو عدي وبنو عتيك بن عامر. أما قريش الظواهر فقد أقاموا بظاهر مكة أي خارجها وهم بنو محارب وبنو الحارث بن فهر وبنو الأدرج بن غالب وبنو هصيص بن عامر، ويذكر المؤرخ بن خلدون أن قصيا بعد أن استقر بقومه من قريش البطاح بمكة وبنو البيوت انتهى بذلك عهد البداوة في تاريخهم⁽¹⁰⁾. وهكذا عرفت قريش كيف توظف نسبها الشريف مستمدة منه القوامة على البيت الحرام وتبسط سلطانها الديني على العرب.

المبحث الثاني

النظام الإداري للكيان القرشي

دخلت القرية المكية طور النظام الاجتماعي بعد أن مرت بأطوار من الاضطرابات والحروب والقتال على السيادة و كان أساس الحياة في الحجاز يقوم على قبول الهجرة القادمة من الجنوب ولا شك أن النظم الإدارية الحكومية عرفت قبل قصي، فقد ثبت أن وظائف السدانة والسقاية والرفادة كانت قائمة في عهد عمرو بن لحي زعيم خزاعة⁽¹¹⁾. ولما استقر السلطان لقصي بمكة واستقامت له الأمور ساد مكة وحكمها وتولى أمر البطون التي أيدته فأنزله بطن مكة واتخذ دار الندوة مركزا للحكم واهتم بعمارة البيت وجعل وظائف رعاية الكعبة وخدمة الحجيج على رأس اهتماماته. وترأس ملاً عشائر قريش، وهو تنظيم قبلي في جوهره وإن بدا نظاما جمهوريا من حيث أنه نظاما شوريا يخضع لرأي الجماعة ورقابتها ولم يكن الزعيم فيه يلقب بالملك، فهو اتحاد عشائر ارتبط بعضها ببعض بغرض سدانة الكعبة والقيام على تجارة القوافل؛ فاشترك الجميع في مصلحة واحدة مكن ملاً قريش في الغالب من الوصول إلى قرارات جماعية حاسمة. وقد جمع قصي وظائف السيادة كلها في يده وظل طوال حياته محترما مطاعا يرى الناس أمره كالدين المتبع⁽¹²⁾.

خلف عبد مناف أباه في رئاسة قريش فسار في طريقه واجتهد في إكمال عمله السياسي بتأليف القبائل وعقد الاتفاقيات وإبرام الأحلاف وكان رجل سياسة وتعمير فاختر بمكة رباعا بعد الذي كان قصي قطع لقومه. واقتضى تطور المجتمع القرشي قيام إدارة ذات شخصية اعتبارية وأعمال أخرى تختص بخدمات الدولة. ولقد احتاج رجال قريش إلى بعض المناصب لإدارة مكة وتوزيع السلطات التنفيذية بينهم على نحو فريد. وتبلور الهيكل الإداري للكيان القرشي في القرن السادس الميلادي⁽¹³⁾ على النحو التالي:

الهيكل الإداري لدولة قريش في القرن السادس الميلادي

دار الندوة:

هي الدار التي بناها قصي بن كلاب ملاصقة للمسجد الحرام من الجهة الشمالية وكانت فسيحة وفيها كانت قريش تقضي شؤونها العامة، وقد سميت بالندوة لأنهم إذا حزبهام أمر ندوا إليها للتشاور⁽¹⁴⁾. وفيها يجتمع ملأ قريش للتشاور ولم يكن يدخلها لإبداء الرأي والمشورة إلا من تجاوز سن الأربعين وفيها كانت تعقد قريش لواءها إذا خرجت للحرب ومن تلك الدار أيضا كانت تخرج قوافل قريش للتجارة وفي فنائها تحط حملاتها إذا رجعت. وإذا بلغ غلام لقريش أن يعذر (أي يختن) عذر فيها وإذا بلغت جارية لقريش جاء بها أهلها إلى دار الندوة فشق عليها قيم الدار درعها (قميصها) فدرعها إياه ثم انقلبت إلى أهلها فحجبوها والظاهر أن الغرض من الأمرين الأخيرين هو التعريف بالبالغين من ذكور وإناث قريش ودار الندوة في مكة تشبه الاكليزا (Ekklesia) في أثينا إلا أن الملأ القرشي كان أكثر تفاعلا وشعورا بالمسؤولية من رجال الاكليزا اليونانية وأقل تأثرا بالانفعالات العاطفية، ذلك لأن الملأ كان يتكون من رؤساء العشائر أوبي الرأي والحكمة فيها على حين كان الأثينيون يقبلون في الاكليزا كل رجل أمين مستقيم⁽¹⁵⁾.

السدانة:

هي رعاية البيت والقيام على إعداداته للزائرين وفي القاموس السدان هو خادم الكعبة وبيت الأصنام⁽¹⁶⁾. ووظيفة السدانة من الوظائف المهمة نظرا لمكانة الكعبة عند العرب، ولأن البيت الحرام هو الذي أعطى مكة قدسيتها وجلب إليها الحجاج من شتى بقاع الأرض، وعلى موسم الحج يقوم جزء كبير من حياة مكة الاقتصادية ولذلك اهتمت قريش برعاية البيت الحرام والدعاية له في أنحاء الجزيرة وجلبت إليه أصنام القبائل وأقامتها حول الكعبة وروي أن عددها بلغ 360 صنما حطمها النبي صلى الله عليه وسلم عام فتح مكة⁽¹⁷⁾.

السقاية:

وهي أيضا مرتبطة بالكعبة والحج إليها وتبرز أهميتها في أن مكة بلد شحيحة المياه وأن الحاج إليها يلقي عننا شديدا إذا لم يتيسر له الماء خاصة في موسم الحج حيث يكثر الوافدون إلى مكة لأداء هذه المناسك. فقد أصبحت مهمة السقاية بالغة الخطورة خصوصا قبل ظهور بئر زمزم التي يسرت المقام في هذا الوادي القفر والتي كانت قد طمرت نتيجة لإهمال جهرم لها أو لأن زعيم جهرم قد طمرها بعد أن هزم أمام قبيلة خزاعة واضطر للخروج من مكة حتى يضايق خزاعة ويجعل مهمة الحج عسيرة⁽¹⁸⁾. وعد المكيون وظيفة السقاية فضيلة عظيمة وشرفا كبيرا كما عدوا السدانة من قبل واعتبروهما من أعظم الوظائف وكانت قريش تفاخر بهما وقد تولت هذين الوظيفتين أعظم العشائر القرشية، وحين فتح النبي مكة ألغى كل المناصب بها ولم يبق إلى على هاتين الوظيفتين.

الرفادة:

هي إطعام الحجاج في موسم الحج وقد فرض قصي على قريش خرجا تخرجه من أموالها وتدفعه إليه فيصنع به طعاما يقدمه للحجاج في أيام عرفات ومنى وقد تقدم ذكر ذلك، فجرى ذلك من أمره في الجاهلية حتى قيام الإسلام، ثم جرى في الإسلام إلى يومنا هذا فهو الطعام الذي يصنعه السلطان كل عام بمنى للناس حتى ينقضي الحج⁽¹⁹⁾.

كان هذا العمل من قصي ينطوي على حكمة سياسية كبيرة، فإمداد الحاج بالطعام يدعوه إلى الإقبال على مكة لأن بعد الشقة وصعوبة السفر يجعل حمل المؤن والأزواد لمسافات طويلة أمرا في غاية الصعوبة وإطعام الطعام من أكبر الفضائل التي

يمتدح بها العرب وينال صاحبها عن طريقها الاحترام والمنزلة الرفيعة، كما أن المؤكلة تعد عقد جوار عند العرب فإذا أطعمت قريش القبائل في موسم الحج تتال احترامها وتقديرها. ولقد اعتبرت الرفاة إلى جانب السقاية حلفا قرشيا كبيرا مع كافة القبائل العربية.

وظائف أخرى:

ولقد استحدثت ملأ قريش وظائف أخرى إلى جانب السدانة والسقاية والرفاة عندما تطلعت البطون القرشية للمشاركة في شؤون مكة، ومن أجل إرساء دعائم السلام وحرص الملأ على إرضاء العشائر استحدثت عشر وظائف أخرى وأسندها للعشائر القرشية والوظائف هي:

- العمارة: وهي مراعاة الأدب والوقار في البيت الحرام، فلا يتكلم فيه بهجر ولا رفث ولا ترفع فيه الأصوات
- الحجابة: وهي قفل البيت الحرام وفتحه للزائرين
- المشورة: وهي أنهم لا يجتمعون على أمر حتى يعرضوه على صاحبها
- الأشناق: وهي الأموال الخاصة بالديات والمغارم والقيام على أدائها
- القبة: وهي خيمة تجمع فيها أسلحة الجيش
- الأعنة: هي قيادة الخيل
- السفارة: وهي الاتصال بالقبائل الأخرى في المنافرات والمفاوضات
- الأيسار: وهي الأرزلام التي يضرب بها عند هبل في جوف الكعبة
- الحكومة: هي الفصل في المنافرات والخصومات
- الأموال المحجرة: وهي الأموال المسماة للآلهة

على الرغم من أن مجلس الشيوخ (الملأ) كان وسيلة الحكم في مكة ويتولى شؤونها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فإنه لم يعتمد في تنظيم عمله على قانون مكتوب وإنما كان يصرف هذه الشؤون طبقا للعرف والعادة ومع ذلك لم يقض على حرية الأفراد فكل فرد كان يتمتع بحريته في إطار الشعور بحقوق الجماعة التي ينتمي إليها، وهو نفس النظام الذي كان سائدا في جميع أنحاء الجزيرة العربية وقد كانت القرارات الحاسمة للملأ هي القرارات الجماعية⁽²⁰⁾.

يرجع الفضل في قوة مكة إلى قوة زعمائها وقدرتهم على تكوين رأي عام وحل المنافسات الداخلية التي تنشأ بين العشائر على أساس المصلحة العامة والمحافظة على وحدة القبيلة التي كانت تتطلبها ظروفها باعتبارها قبيلة تجارية في بلد يعتمد في حياته على التجارة وما تجلبه لأهلها من وسائل الرزق، كما يعتمد على قدسية البيت الحرام الذي يفد إليه الحجاج من شتى بقاع الجزيرة العربية وما يترتب على لك من حصول القبيلة على المكاسب المادية والأدبية والمعنوية. ولقد نجح ملأ قريش في المحافظة على تماسك القبيلة فاستطاعوا حل الخلافات الداخلية حلا سلميا كما استطاعوا أن يرضوا شعور العشائر ويحدوا من تنافسها على السلطة بأن توسعوا في قاعدة الحكم فأنشأوا الوظائف وأسندوا لكل عشيرة وظيفة تمارسها في نطاق القبيلة.

المبحث الثالث

القرشيون والحج والتجارة

مما لاشك فيه أن تجارة العرب وحجهم إلى مكة قبل الإسلام أمران متلازمان بحيث أنه لا يمكننا الحديث عن أحدهما دون الآخر، فالتجارة العربية قبل الإسلام حلقة هامة في تاريخ التطور البشري بما أوجدته من موروث ساهم في تشكيل الخريطة السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية لشبه جزيرة العرب بل تعدى أثرها إلى شتى بقاع الشرق الأدنى. أما حج الجاهلية فلا نعرف متى بدأ على وجه التحديد، فالروايات في ذلك كثيرة ومتضاربة فقد ذكر دوزي⁽²¹⁾ أن تاريخ مكة يرتقي إلى أيام داوود عليه السلام، ففي عهده عرف الشمعونيون الكعبة وهم بنو جرهم عند أهل الأخبار. ورأى جماعة من المستشرقين أن ديودورس الصقلي عاناها بالذات عندما ذكر معبدا كان محجة لجميع العرب⁽²²⁾.

لاشك أن الصراع المرير الذي دار بين جرهم وخزاعة على ولاية البيت الحرام في القرن الرابع الميلادي على أرجح الأقوال كان مبعثه أن الولاية على البيت تدر المال الوفير من العشور والنذور والتجارة، وقد أسف بنو جرهم وحزنوا عندما أجليتهم خزاعة عن مكة فقال قائلهم:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا

أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا

صروف الليالي والجدود العواثر

وكنا أولات البيت من بعد ثابت

نطوف بذاك البيت والخير ظاهر⁽²³⁾

ويتضح مما أورده المصادر أن مكانة مكة الدينية قد برزت بشكل واضح في آخر عهد الخزاعيين، أواخر القرن الثالث الميلادي، فكتب الإخباريين تظهر في القصص عن محاولات الحميريين غزو الكعبة لتحويل حج الناس إلى اليمن كفعل حسان بن كلال الحميري، وعندما استعصى عليهم ذلك حجوا إليها وكسوها وعظموها كفعل أسعد أبو كرب الحميري. كما رووا أن الاسكندر الأكبر وساسان بن بابك وغيرهم من مشاهير ذلك الزمان حجوا إلى مكة وكسوا الكعبة مما يدل على أن ذكر مكة قد شاع خارج نطاق بلاد العرب⁽²⁴⁾.

لقد نجحت قريش عندما آلت إليها الولاية على البيت وحكمت مكة أن تستقل الدين الوثني وشعائر الحج وتوظفها لخدمة مصالحها التجارية، فقد كان المكيون ينظمون مواكبا دينية يخرج فيها زعماء مكة يقودون الجمال تحمل القباب ويدخلها الأصنام يتبعها النساء وقد حلت الشعور وضرب الدفوف والغرايل وصدح بأصوات الفرح والحامسة، يفعلون ذلك كلما خرجت لهم عبر أو قدمت⁽²⁵⁾ فقد أصبح تعظيم البيت الحرام والقيام على أمر الحج محورا للحياة بمكة نظرا لما يجلبه من مصالح لا تحصى.

عرف الحجازيون التجارة في وقت مبكر جدا ولعل جذب شبه الجزيرة العربية وشح مياهها بالإضافة إلى موقع الحجاز على الطريق البري ومعرفة العرب بأسرار الصحراء وحذقهم لعلوم الأنواء وقيافة الأثر وحسن توظيفهم للإبل (سفن الصحراء) قد دفع بالتجارة خطوات للأمام، فعندما كانت مقاليد التجارة بأيدي ملوك اليمن وأباطرة الرومان وملوك الحبشة والفرس كان عرب الحجاز يقومون بدور فيها وإن بدا صغيرا وفي نطاق ضيق. إذ عرفت أسواق العرب قديما في دومة الجندل وخيبر وذي المجاز ومجنة وعكاظ ومكة حاصلات غير عربية قبل أن يأخذ هاشم بن عبد مناف إيلاف قريش في القرن الخامس الميلادي. فقد ذكر ابن حبيب أن قوافل قريش كانت تحمل إلى هذه الأسواق الزبيب والبرود اليمنية والأواني والثياب⁽²⁶⁾.

كان للمواصلات التجارية في شبه جزيرة العرب طريقان رئيسيان، أحدهما شرقي يصل موانئ اليمن وعمان بالعراق وفارس ثم يجوز بادية السماوة حتى يصل به المطاف إلى أسواق الشام. كان يعرف بطريق الحرير (silk route)⁽²⁷⁾، وكان هذا الطريق من مواقع الاحتكار والصراع بين الفرس و الروم. عندما اشتد الصراع بين الإمبراطوريتين وتطور إلى حرب طاحنة فقد هذا الطريق أهميته وترك لانعدام الأمن فيه، أما الطريق الثاني فهو الذي يصل اليمن بالشام مجتازا بلاد الحجاز من أطرافها الغربية. ولقد استطاع هذا الطريق وبفضل مهارة القرشيين وحذقهم في المحافظة على حياده بين الإمبراطوريتين العملاقتين أن يصبح شريانا حقيقيا لتجارة المرور بين الشمال والجنوب، واكتسب أهمية خاصة بالنسبة للرومان، وظل لقرون عديدة نافذة أوربا على بلاد الشرق.

ولقد أفاضت المصادر الإسلامية في وصف هذا الطريق والطرق الموازية شرقا وغربا والطرق العرضية التي تتفرع منه خاصة تلك التي تصل مكة بأسواق العراق والحيرة التي ظلت على علاقة تجارية دائمة ببلاد الحجاز. وقد حقق الباحث السعودي حمد الجاسر معظم منازل هذا الطريق و ذكر أنه كان يتتبع مواضع الماء ويتجنب أغوار سهل تهامة الوعرة بالاتجاه شرقا وقد عرف بعدة أسماء مثل: الجادة والروحاء و ذي قوى وهي في الأصل أسماء مواضع على هذا الطريق ما لبثت أن أصبحت علما عليه⁽²⁸⁾.

شغلت حرفة التجارة حيزا معتبرا في تفكير القرشيين وصارت محور اهتمامهم فالمتأمل لكتاب الله العزيز يجد فيه إشارات بعيدة الدلالة على ذلك الاهتمام مثال ذلك قوله تعالى "قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا بشير ونذير لقوم يؤمنون"⁽²⁹⁾ سورة الأعراف، آية 188 فالمفسرون يذكرون في سبب نزول الآية أن المشركين قالوا لم لا يوحى إليه ربه أثمان السلع فنشترها حين ترخص ونبيعها حين تغلو فتزداد أموالنا وكثيرا ما تتكرر في كتاب الله تعالى كلمات الربح والخسارة فقد وصف الله المؤمنين المطيعين الذين أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة أنهم يرجون تجارة لن تبور وشبه الذين شغلتهم الضلالة عن الهدى بالخاسرين في تجارتهم فقال جل وعلا "أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم"⁽³⁰⁾ سورة البقرة، آية 16

و مدح آخرين سعوا في مرضاته وجاهدوا في سبيله بقوله تعالى "إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله واستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم"⁽³¹⁾ سورة البقرة، آية 207.

وقال تعالى في تأنيب الذين اشتغلوا بالتجارة عن الصلاة "وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما"⁽³²⁾ سورة الجمعة، آية 11.

وذلك عندما انصرفوا لاستقبال القافلة القادمة من الشام وتركوا الرسول صلى الله عليه وسلم قائما يخطب من إعظامهم له وحبهم إياه. ولما أراد تشويق قوم إلى الإيمان قال "هل أدلكم على تجارة تتجكم من عذاب أليم. تؤمنون بالله" (33). سورة الصف، آية 10.

وكان للقرشيين اهتمام بما حولهم من الأقطار التي يتاجرون فيها ومراقبه لما يجري من أحداث وأنت تعرف ذلك من الحرب التي كانت بين الفرس والروم على مشارف الشام قبيل الهجرة النبوية، وكيف كان مشركوا مكة فرحين بانتصار الفرس على الروم إذ كانوا مثلهم غير ذوي كتاب، وقد شمتوا بهزيمة الروم لأنهم كانوا كالمسلمين أتباع كتاب سماوي وقد سجل القرآن الكريم ظاهرة اهتمام المكيين لما يجري حولهم من شؤون الفرس والروم في قوله تعالى "الم. غلبت الروم. في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون. في بضع سنين الله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون. بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم" (34) سورة الروم، آية 1-5.

وأدنى الأرض بصري واذرعات وهما سوقان من أسواق العرب. والتجار منذ القديم نقلة ثقافة من حيث لا يشعرون وليس العرب بدع في ذلك فقد أفادوا من اتجارهم واختلاطهم بالرومان والفرس وخضعوا لما يخضع إليه غيرهم من آثار الاختلاط، حتى إنا لنرى أسماء رومانية وفارسية وحبشية كثيرة تخللت لغتهم ولنا أن نعد انتشار النصرانية في الشام والمجوسية في العراق واليمن من آثار التجارة (35).

تكثر الأمثال التي تتعلق برحلات العرب التجارية وأحوالهم فيها مثل قولهم: عند الصباح يحمد القوم السرى - لا تترك الراحة إلا بالتعب - أن ترد الماء بماء أكيس - يحمد السوق من ربح - إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى - أنت كم ستبضع التمر إلى هجر - لم يضع من مالك ما وعظك.

يذكر المشتغلون بدراسة اللغويات في أبحاثهم أن اللغة العربية تأثرت بالفارسية واللاتينية والحبشية والآرامية وقد كانت لغات التجارة في ذلك الزمان وقد لاحظ الباحثون ورود كلمات كثيرة من أصول شتى على اللغة العربية كانت في الأصل أسماء لبضائع يجلبها التجار من بلاد الفرس والروم والحبشة وغيرها مثل: العنج والصولجان والفيل والجاموس والمسك والعنبر والديباج والإستبرق والإبريز والإقليم والإكسير والبيطار والدرهم والدينار والمنديل والفردوس ودكان... الخ

ذكر الجاحظ أن قريشا صاروا أدهى العرب وأعقل البرية وأحسن الناس بيانا لاختلاطهم بغيرهم ولاتصالهم بكثير من القبائل، فأخذوا عن كل قوم شيئا ثم أنهم كانوا تجارا والتجار هم أصحاب الترييح والتكسب والتدنيق والتدقيق وكانوا متشددين في دينهم حمسا فتركوا الغزو كراهة السبي واستحلال الأموال، إلى غير ذلك من أمور جلبت لهم الشهرة والمكانة (36).

الفصل الثاني

إستراتيجية قرش لصنع السلام

المبحث الأول: إيلاف قرش الداخلي

أدركت قرش مبكرا بحكم جغرافية المكان والموقع أن ازدهارها لابد أن يعتمد على التجارة وأنه لا قوام للتجارة إذا لم يتوفر الأمن والسلام، وانطلاقا من هذا المفهوم دأبت قرش تنشئ الأمن من أجل تجارتها⁽³⁷⁾ فبنت إستراتيجيتها على صنع السلام وحمايته بشتى الوسائل. فعلى الصعيد الداخلي حكمت مكة حكما جماعيا بواسطة ملأ قرش واشترك الأغنياء والفقراء في تسيير القوافل التجارية ثم أشركوا القبائل القاطنة على طول الطريق بين اليمن والشام في مشاريعهم التجارية. تم كل ذلك في إطار إستراتيجية قرشية شاملة لصنع وحفظ السلام فقد ظلت قرش منذ أن جمعها قصي بن كلاب بمكة في النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي تعمل على توطيد دعائم السلم بما يحقق مصالحها وقد شملت تلك الإستراتيجية إرضاء العشائر القرشية بإشراكها في إدارة البلاد كما شملت توظيف الدين الوثني في خدمة الأهداف التجارية. وكان طبيعيا أن يتجنب القرشيون الحرب وما يقرب إليها لأن ذلك يتعارض مع إستراتيجيتهم القائمة على توسيع رقعة الأمن وقد بدا ذلك غريبا في أعين غير القرشيين فعابوهم واتهموهم بالجبن أحيانا⁽³⁸⁾.

تتضح ملامح الإستراتيجية القرشية لدى إمعان النظر في المعاهدات والاتفاقيات والأحلاف التي عقدتها قرش في هذه الحقبة ومنها معاهدات الإيلاف المشهورة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم في صورة الإيلاف، قال تعالى: "إيلاف قرش. إيلافهم رحلة الشتاء والصيف. فليعبدوا رب هذا البيت. الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف"⁽³⁹⁾. ومن معاني الإيلاف المؤلفة والتأليف بمعنى الإجارة والتقريب، ولذلك سمي هاشم بن عبد مناف وإخوته بالمجيرين. وقوله تعالى "أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف" يعني الضيق الذي كان فيه أهل مكة قبل أن يأخذ هاشم لهم الإيلاف. والخوف الذي كانوا عليه ممن يمرون عليهم من الأعداء ومن ذلك قوله تعالى "واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يخطفكم الناس فأواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون"⁽⁴⁰⁾ يعني بذلك الأسفار ولم يرد ذلك وهم مقيمون في حرمهم وأمنهم لأن الله تعالى يقول "وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا"⁽⁴¹⁾.

لعب الإيلاف دورا بارزا بين عوامل قوة قرش ونهضتها فقد هيا لمكة القوة المادية اللازمة. فظاهرة الإيلاف وليدة عوامل طبيعية وتاريخية، فمن الناحية الطبيعية كانت مكة منطقة صحراوية لا يمكن لأهلها الاعتماد على الزراعة في عيشهم، فلا بد والحال هذه من الاعتماد على حرفة أخرى لتأمين معاشهم. أما العوامل التاريخية فيقصد بها قداستها باحتضانها أول بيت أقيم للناس وموقعها على طريق التجارة وما نشأ عن ذلك من تنظيمات جعلتها عرضة لأطماع القبائل المتجولة في المنطقة. كان من أهداف الإستراتيجية القرشية السلمية إشاعة الرضا بين العشائر والبطون القرشية ويتضح ذلك مما أورده الإخباريون في السبب المباشر لإيلاف قرش.

تذكر المصادر ظاهرة اجتماعية سلبية ظهرت في مكة قبيل الإيلاف سببها الفقر والجوع عرفت باسم "الإعتقاد". وتعني أنه إذا أصاب أحد العائلات المكية ضيق وجوع يخرج أفراد هذه العائلة إلى الصحراء ويضربون على أنفسهم الأخبية بالتناوب حتى يموتوا دون أن يعلم بهم الناس. واستمرت هذه الظاهرة حتى زمن هاشم بن عبد مناف الذي استتركها وبين عواقبها على المجتمع المكي، وبين أن الاعتقاد لا يتناسب مع شرف قرش وسمعتها الطيبة بين العرب، وطلب إلى قومه قطعها بالتوسيع على المحتاجين وإشراكهم بمشاريع التجارة حتى يصبح الفقير غنيا. وقال لهم في ما قال "إنكم قد أجديتم جدبا تلقون فيه وتذلون، وأنتم أهل حرم الله وأشرف ولد آدم والناس لكم تبع" فقالوا "نحن تبع لك فليس عليك منا خلاف"⁽⁴²⁾. فخرج هاشم إلى

الشام فأمر بخبز كثير فخبز له فحملة في الغرائر على الإبل حتى وافى مكة فهشم ذلك الخبز وثرده ونحر الإبل ثم أمر الطهارة فطبخوا ثم كفاً القدور على الجفان فأشبع أهل مكة فكان ذلك أول الحيا بعد السنة التي أصابتهم فسمي بذلك هاشما وكان قبل ذلك يسمى عمرو. قال ابن الزبير في ذلك:

عمرو الذي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف⁽⁴³⁾

فجمع هاشم كل بني أب على الرحلتين في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام للتجارات، فما ربح الغني قسمه بينه وبين الفقير حتى صار فقيرهم كغنيهم، ولم يكن في العرب بنو أب أكثر مالا وأعز من قريش وهذا معنى قول شاعرهم فيهم:

والخالطون غنيهم بفقيرهم حتى يكون فقيرهم كالكاف⁽⁴⁴⁾

انتقلت أحوال قريش بفضل ما أشاعه هاشم من إيلاف بين عشائر قريش من طور إلى طور، فبعد أن كانت تجارتهم قاصرة على مكة يقدم عليهم فيها التجار الأعاجم فيشترون منهم سلعتهم، خلصوا من تحكم الأجانب ومارسوا هم أنفسهم التجارة الخارجية بعد أن أمنوا الطريق وعقدوا المحالفات فعظمت ثرواتهم وفاض غناهم. ولقد تم كل ذلك في إطار إستراتيجية قرشية ثابتة ما كانت لتتجح بغير إشاعة التكافل بين طبقات المجتمع القرشي ومكافحة الفقر بأسلوب عملي وهذا ما أطلقت عليه هنا إيلاف قريش الداخلي. فإيلاف قريش هنا يعني تراحمهم وتواصلهم وتأليف قلوبهم بجعلهم جميعا شركاء في المستقبل.

المبحث الثاني

العصم والعهود الخارجية

تجمع المصادر التي بين أيدينا أن هاشم بن عبد مناف اجتهد في توسيع نطاق تجارة مكة والوصول بها إلى الشام، فإن التجارات كانت تقف عند مكة، ففكر في الوصول بها إلى الشام⁽⁹⁾ التي كان يرتادها تاجرا بعد أن أحس أن هناك طلبا على بضائع معينة يستطيع هو وقومه أن يأتوا بها، وهذه البضائع لا تقتصر على ما يخرج في بلادهم مثل الأدم، أي الجلود والتمور والصوف، فهذه الأصناف مهما عزت فإن لها بدائل في بلاد الروم. ولكن كانت الحاجة ماسة إلى أنواع من بضائع الشرق مما لا تستغني عنها الكنائس في طقوس العبادة ولا يستغني عنها الملوك وسروات الناس في حياتهم مثل: التوابل والعطور والمسك والحريز واللبان والقطن والصندل والعود والعنبر والأحجار الكريمة، وهذه الأصناف تأتي من الهند والصين وبحارها⁽⁴⁵⁾، إلى جانب أصناف أخرى مثل: العاج وريش النعام وجلود الحيوانات السمكية وبعض التوابل والعطور والدهون فتأتي من بلاد آسيا وأفريقيا.

وكان بعض هذه الأصناف يصل إلى مكة والباقي يمكن جلبه إليها إذا مست الحاجة، وهذه الحاجة هي التي لمسها هاشم بن عبد مناف في بلاد الشام، وهي انقطاع وصول التجارة الشرقية إلى بلاد الروم بسبب اشتعال الحرب بين الفرس والروم في القرن الخامس الميلادي والتي استمرت لأكثر من قرن⁽⁴⁶⁾. وكان من ساحات هذه الحرب بلاد أرمينيا وشمال العراق التي يمر بها طريق التجارة الشرقي الذي يصل موانئ اليمن والعراق وفارس ويجوز بادية السماوة إلى أسواق الشام. ولقد تأثرت أسواق الشام بانقطاع هذا الطريق فوجد هاشم ظروفًا مواتية فأحسن استغلالها فأنجز إيلاف قريش الذي حقق الأمن لقوافل قريش فخرجت من محيط التجارة المحلية إلى دائرة التجارة العالمية.

عندما وجد هاشم بن عبد مناف قبولًا وترحيبًا لدى الروم عرض عليهم أن يأتيهم بتجارة المشرق وتكلف لذلك المظهر العظيم واجتهد في مداخله رجال الدولة الذين قدموه لملكهم الذي أعجب به فقال له هاشم "أيها الملك إن قومي تجار العرب، فإن رأيت أن تكتب لي كتابًا تؤمن تجارته فيقدم عليك بما يستطرف من أدم الحجاز وثيابه فتباع عندكم فهو أرخص عليكم" فكتب له كتاب أمان لمن يقدم منهم، فأقبل هاشم بذلك الكتاب فجعل كل ما مر بحي من أحياء العرب أخذ من أشرفهم إيلافًا⁽⁴⁷⁾.

والإيلاف أن يأمنوا في أرضهم بغير حلف وإنما هو أمام الطريق على أن تحمل لهم قريشا بضائعهم فيكفونهم حملانها ويأدون إليهم رؤوس أموالهم وريحهم. وحقق هاشم بهذا الأسلوب العملي الأمن للقوافل فاستفاد تجار قريش وأفاد رؤساء القبائل بإشراكهم في المشاريع التجارية المكية فكان المقيم رابحا والمسافر محفوظًا⁽⁴⁸⁾. وقدم هاشم على قومه بمكة من بلاد الشام فأتاهم بأعظم شيء بركة، فخرجوا بتجارة عظيمة وخرج هاشم معهم يجوزهم ويوفيههم إيلافهم الذي أخذ لهم من العرب حتى أوردتهم الشام وأحلهم قراها، ومات في ذلك السفر بغزة

وخرج المطلب بن عبد مناف إلى اليمن فأخذ من ملوكهم عهدًا لمن تجر إليهم من قريش وأخذ الإيلاف كفعل هاشم وهلك بردمان من اليمن. وخرج عبد شمس بن عبد مناف إلى الحبشة فأخذ إيلافًا كفعل هاشم والمطلب وهلك بمكة. وخرج نوفل بن عبد مناف فأخذ عهدًا من كسرى لتجار قريش وإيلافًا من زعماء القبائل من أحياء العرب فيما بين العراق ومكة وفي طريق عودته مات بسلمان⁽⁴⁹⁾. هذا وقد عم الشاعر مطرود الخزاعي بني عبد مناف بذكر الإيلاف في قصيدته المشهورة:

يا أيها الرجل المحول رحله

هلا حلت بآل عبد مناف

المنعمين إذا النجوم تغيرت

والظاعنين لرحلة الإيلاف

سفرين سنهما له ولقومه

سفر الشتاء ورحلة الأصياف

هبلتك أمك لو حلت لديهم

ضمنوك من جوع ومن تطواف

الآخذون العهد من آفاقها

والراحلون برحلة الإيلاف⁽⁵⁰⁾

أخصبت قريش بفعل الإيلاف وأتاها خير الشام واليمن وبلاد فارس والحبشة، فحسنت حالها وطاب عيشها واتسعت تجارتها فصارت شبه دولية بعد أن كانت لا تعدو الأسواق القريبة من مكة. فأبناء عبد مناف هم في الحقيقة أبطال قريش ورجالته في الاقتصاد، فليس بقليل أن تفتح الممالك أسواقها لقوافل قريش وتجارها. ولقد امتد فضل الإيلاف حتى زمن الإسلام فما اختيرت الحبشة دار هجرة للمسلمين الأوائل إلى لاعتيادهم الرحلة إليها متاجرين فقد كانت لهم وجهاً ومتجراً قبل الإسلام⁽⁵¹⁾.

المبحث الثالث

تأليف القبائل

تأليف القبائل عملية ترويض كبيرة تتطلب جهداً وخبرة طويلة. فقريش التي خبرت طبائع الناس وبخاصة البدو من خلال الاحتكاك الدائم في المواسم الدينية والاقتصادية وحدها القادرة على ابتكار الأسلوب الأفضل للتعامل معهم. وقد نجح أبناء ابن عبد مناف في تأليف القبائل على امتداد الطرق بين الشام واليمن والعراق، فبعد أن كانت هذه القبائل تغير على القوافل فأصبحت تجوز بها إلى مأمونها. فقد اعتمد إيلاف القبائل بالدرجة الأولى على خبرة القرشيين بالطبائع البدوية وتأليفها بأساليب تحمل البدوي على التخلي عن كثير من طبائعه المكتسبة، أي إن الإيلاف عملية تأليف واعتياد على وضع جديد يصعب الخروج عليه. وقد دعي أبناء عبد مناف بالمؤلفين وأصبح التأليف فضيلة ومنقبة فخير الناس آلفهم للناس⁽⁵²⁾.

كانت قريش تعلق على إيلاف القبائل أهمية أكبر بما تعلقه على عهود الدول، لذلك نهجت سياسة ترضية مع أبناء القبائل المقيمة على طول الطرق التجارية. وقد أدركت قريش أهمية قبيلة تميم كبرى القبائل العربية شمال شرق مكة في المعادلة القبلية، فأشكرتها في الإدارة الملكية ومنحتها بعض امتيازاتها كما شاركتها في الإشراف على الإجارة والإفاضة من أعمال الحج وأسندت لها دور الحكومة في سوق عكاظ⁽⁵³⁾. ويرجع رواة الأخبار العلاقة بين قريش وتميم إلى حقب تاريخية موعلة في القدم تعود إلى بداية تكوين الكيان القرشي، فقد ذكروا أن كنانة والد النضر بن كنانة الذي هو "قريش" عند بعض أهل الأخبار قد تزوج من برة بنت مر وهي أخت تميم فأصبحت أم النضر بن كنانة فصار بنو تميم خوئلته، وإلى ذلك أشار الشاعر جرير وهو يمدح هشام بن عبد الملك:

وما الأم التي ولدت قريشا

بمقرفة النجار ولا عقيم

وما قرم بأنجب من أبيكم

وما خال بأكرم من تميم⁽⁵⁴⁾

وكانت تميم على حلف مع قبيلة كلب أخطر القبائل العربية على تجار قريش لأن مواطنها انتشرت ما بين أعالي الحجاز إلى بادية الشام فلم تكن بطون كلب تتعرض لقوافل قريش ووقفوا مع قريش ضد الدعوة الإسلامية في بداية عهدها. كذلك خدم تحالف تميم مع قبائل أسد وطيء المصالح القرشية فتمكن القرشيون من إرسال قوافلهم آمنة نحو دومة الجندل والعراق⁽⁵⁵⁾. ولقد امتدت منازل تميم من وادي الرمة شرقاً إلى وادي الباطن عند الطرف الشمالي الغربي من خليج العرب، فتحكمت بطرق المواصلات بين مكة والحيرة التي كانت تتولى فيها منصب الرداة وهو منصب ينوب فيه الرديف عن ملك الحيرة فأصبحت تميم شريكة إدارية في الحيرة ومكة⁽⁵⁶⁾.

ارتبطت قريش بعلاقات ودية مع قبائل أشجع وسليم وبنو أسد وأقامت بعض بطون غطفان وهوازن وسليم تحالفات مع أشرف قريش أساسها العلاقات الاقتصادية. وكانت ثقيف على صلة دائمة بقريش إذ أن الطائف كانت مصيف رجالات مكة يملكون فيها البساتين والأطيان. وكانت لخزاعة في مر الظهران علاقات ودية مع قريش⁽⁵⁷⁾. أما قبيلة عذرة أحد بطون قضاة صلات نسب بقريش منذ عهد قصي بن كلاب توطدت بالإيلاف. وكان لعذرة حلف مع قبيلة جهينة جعل الأخيرة تحترم المصالح القرشية وتسهل مرور القوافل التجارية إلى الشام. أما بطون كنانة مثل القين وبكر وبلحارث ومذليج وضمرة بن بكر وليث بن بكر فكانت تقطن حول مكة وتربطها بقريش صلات قوية بحكم الانتماء المشترك إلى كنانة.

عرفت بعض بطون كنانة مثل بني عامر بن لؤي وبنو فهر بقريش الظواهر وكانت تغزو وتغير دفاعاً عن قريش البطاح الذين تسميهم "الضب" للزومهم الحرم وقيامهم بأمر الدين⁽⁵⁸⁾. كما تجنبت قريش إبرام الأحلاف مع القبائل التي اشتهرت بالفتك لأن نظام السلم المكي كان يحتم ذلك. وكانت اتفاقيات الإيلاف تنص دائماً على أن يأمن تجار قريش لدى القبائل "بغير حلف" وذلك لخشية القرشيين أن يجر الحلف إلى حرب. فعندما طرد عبد الله بن جدعان -أحد سادات قريش المعدودين- إبلاً لأحد سادات قبيلة هوازن وتوترت العلاقات بين هوازن وقريش؛ انتمرت قريش بقتله أو تسليمه لئلا يجر عليهم الجرائر ويطلبون بسببه وهم تجار لا يستغنون عن بلد⁽⁵⁹⁾. ولقد اجتهد القرشيون في تعزيز الروابط مع القبائل ذات الصلة بتجارتهن عن طريق الزواج والمصاهرة. وتزخر كتب الأنساب بالإشارات لهذه السياسة القرشية.

الفصل الثالث

إستراتيجية قريش لحماية السلام

رأينا في الفصلين السابقين كيف أن التجارة أصبحت قوام الحياة في الحجاز وكيف أن القرشيين برعوا فيها حتى أصبحوا وسطاءها العالميين وكيف أن صنع السلام وحمايته صار هاجسهم الأوحد. ولقد بذلت قريش جهوداً موفقة في صنع السلام عبر إدارتها الجماعية لشئونها عن طريق الملأ والهياكل الإدارية الأخرى، وإيلاف قريش وما تضمنه من تكافل اجتماعي داخل الكيان القرشي، ومعاهدات تجارية مع الكيانات السياسية القائمة آنذاك، وتأليف القبائل القاطنة حول الطرق التجارية. وكان لابد من بناء إستراتيجية موازية من أجل حفظ السلام فأبدع القرشيون نظام الحمس ووظفوا الدين الوثني، أو ما عرف بدين عبد المطلب، وأبرموا الأحلاف من أجل حماية السلام الذي أرسوا دعائمه بعد كفاح مرير.

المبحث الأول

نظام الحمس

صارت قريش قبيلة مستقرة واتخذت التجارة لها رزقا وعاشت على الأرباح التي تجنيها من مجيء الأعراب إليها في مواسم الحج والعمرة، ومن امتيازاتها على الأسواق والضرائب التي تجبيها من التجار الوافدين على أسواقها من شتى الأصقاع. و قوم هذا شأنهم في حياتهم وتعاملهم لا يمكن أن يميلوا إلى الغزو والقتال بل مالوا للسلم والموادعة حتى ذهب البعض لاتهمهم بالجبن وقال من عتب على قريش تجارتها التي ألقتها عن المجد الذي هو الحرب والفتك في نظره:

ألهى قريشا عن المجد الأساطير وقولهم رحلت عبر أتت عبر

لكن هذا الشاعر لم يفتن لجوهر الأمر كما فعل الجاحظ الذي قال "إن قريشا دانت بالتحمس والتشدد في الدين وتركوا الغزو كراهة للسبي واستحلال الأموال واستحسان الغصب، ولما تركوا ذلك لم تبق لهم مكسبه سوى التجارة فضربوا في البلاد إلى قيصر الروم ونجاشي الحبشة و مقوقس مصر وصاروا بأجمعهم تجارا خلطاء و لاحظ العلامة ابن سلام أن قريشا "دأبت تنشد الأمن من أجل تجارتها ولا يكاد التاريخ يسجل حربا حقيقية لقريش قبل الإسلام اللهم إلا ما كان من حرب الفجار والتي يحدثنا التاريخ أن قريشا خاضتها مكرهة إلى جانب كنانة ضد هوازن و قيس عيلان.

يروى أهل الأخبار أن عبد مناف ن قصي تألف قبائل كنانة وخزاعة وأقطعهم أرياء بمكة وحالفهم وكانت قريش تستخدمهم في خفارة قوافلها التجارية وظلت هذه القبائل موالية لها حتى مجيء الإسلام. ولم تكتف قريش بذلك في سبيل توطيد دعائم السلم في بلادها، فسعت إلى صبغ نفسها بصبغة خاصة تمتاز بها على جميع العرب فعمدت للإفادة من البيت الحرام والدين الوثني الذي صارت قائمة عليه، وصار زعماء قريش هم سدنة البيت وكهنة الأوثان وقرايين ألقتها كما يدعي الشاعر الحارث بن ظالم المري وهو يمدح آل قصي:

وان تعصب بهم نسبي فمنهم قرايين الإله بنو قصي

عرف هذا النظام القرشي بنظام الحمس أي المتشدد في الدين و هو يعد ضمن التنظيمات القرشية التي تهدف لتأمين تجارة قريش بتمكين هيبته في نفوس الأعراب من حولهم، و خلاصته أنهم قالوا "نحن بنو إبراهيم وأهل الحرم وولات البيت وقطين مكة و ليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا، ولا تعرف العرب ذلك لغيرنا فلا تعظموا الحل كما تعظمون الحرم فإنكم إن فعلتم ذلك استخف بنا العرب فقالوا لقد عظموا من الحل مثلما عظموا من الحرم فاجتمعوا على التحمس للحرم وتركوا الوقوف بعرفة مع إقرارهم أن ذلك من دين إبراهيم، واعتذروا بأنهم أهل الحرم لا يخرجون منه إلى الحل، ثم توسعوا في ذلك وحرمو على أنفسهم انقطاع الأقط و سل السمن من اللبن ما داموا حرما كما حرمو الاستئطال بغير بيوت الأدم ما داموا محرمين. ثم توسعوا أكثر فحظروا على غيرهم الأكل من غير طعام الحرم والطواف بغير ثياب الحمس.

يلاحظ هنا ما رمت إليه قريش من ترويج تجارتها خلال موسم الحج بما تبيع من طعام وثياب للحجاج. وكان الحمس يدخلون البيوت من أبوابها وهم محرمون على غير عادة غيرهم من العرب الذين كانوا ينقبون في ظهورها فيدخلون ويخرجون، ولنظام الحمس طقوس كثيرة لا يتسع المجال لذكرها كلها. وأدخلت قريش في هذا النظام أخلاقها من كنانة وخزاعة وتميم وجذيلة وكلاب وربيعه بن عامر بن صعصعة، ولا يفوتني هنا أن أذكر ما أورده الجاحظ من أن نظام الحمس هذا هو الذي جعل قريش تبتعد

عن مزاولة العادات والطبائع الجاهلية التي سادت عند غيرهم مثل الوأد والأنكحة الفاسدة والفتك والاعتصاب. ولقد كان لفشل حملة أبرهة الحبشية عام الفيل وهو عام 570 ميلادي على أرجح الأقوال أثرا إيجابيا في تثبيت أركان هذا النظام. ارتبطت قريش عن طريق نظام الحمس بمعاهدات صداقة وعدم اعتداء مع قبائل جهيينة ومزينة وغطفان وأشجع وسليم وبنو أسد وختعم. وبدل نظام الحمس على دهاء القرشين وسعة حيلتهم وسعيهم الدؤوب لتوفير الحماية لتجارهم، فقد عملوا على إحاطة أنفسهم بهالة من التقديس مستغلين في ذلك بيت الله الحرام ومكانته عند العرب وكانوا يشترطون على من يصهر إليهم الإقامة معهم والدخول في نظام الحمس ليضمنوا عدم انتهاك منطقة الحرم وحيداء مكة.

لقد ثبت نجاح تلك السياسة القرشية بشواهد تاريخية كثيرة منها على سبيل المثال تصدي قبائل خثعم وهم من أفئدة قبائل العرب لحملة أبرهة عند مرورها بنجران والطائف لأنهم كانوا حمسا، وكذلك ما كانت تقوم به عامة مضر من تخفير لتجارة قريش. وكانت مضر تقول "لقد قضت عنا قريشا مذمة ما أورثنا أبونا إسماعيل من الدين فلا نسمح لأحد بالتعرض لهم. وكانت قريش لا تتخفر عندما تجتاز أراضي كلب وطي من قبائل ربيعة لأنهم حلفاء تميم وبنو أسد وعامتهم من الحمس ويمكن أن نستدل على نجاح نظام الحمس والدور الذي لعبه في تأمين تجارة المرور بالحجاز بأبيات الشعر المنسوبة لزبير بن عبد المطلب:

ولولا الحمس لم يلبس رجال ثياب أعزة حتى يموتوا

ثيابهم شمال أو عباء بها دنس كما دنس الحميت

رمت قريش بنظام الحمس كذلك إلى إعلاء شأن الأشهر الحرم التي كانت تتحول فيها مكة وما حولها إلى سوق عالمي يؤمه التجار من شتى أنحاء المعمورة مما يستلزم الأمن والاستقرار الذي لم تأل قريش جهدا في سبيل توفيره والمحافظة عليه. ولكنهم كانوا يتدخلون في ترتيب الأشهر الحرم بالنسبة لأي التأجيل وفقا لمقتضيات أحوالهم، وكان النساء من بني كنانة فكانوا إذا صدروا عن منى في نهاية الموسم طلبوا من صاحب النسب أن يؤخر حرمة المحرم إلى صفر لأنهم كانوا يكرهون أن تتوالى عليهم ثلاثة أشهر حرم فيستجيب لهم فيحل هم "محرمًا" ويحرم عليهم " صفرًا" وهو تلاعب بالدين واستغلاله لخدمة مصالحهم وفي ذلك قال شاعر كناني مفتخرا بأن قومه هم نساء الأشهر الحرم:

ونحن الناسئون على معد شهر الحل نجعلها حرام

ذم القرآن الكريم التلاعب بحرمة الأشهر الحرم فقال تعالى "إنما النسب زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا به عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ' وعلى هامش نظام الحمس نشأت بعض العادات الاجتماعية وتأسست في المجتمع الجاهلي مع مرور الزمن، فقد كان الرجل يقتل ويعتدي ويغتصب فإذا خاف ربط بعض لحاء الحرم في رقبته وقال " أنا ضرورة" فلا يتعرض له أحد حتى جاء الإسلام، فهدم الله به ذلك، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا ضرورة في الإسلام ومن أحدث حدثا أخذناه بحدته"

المبحث الثاني

دين عبد المطلب

لكي تكتمل صورة الكيان القرشي وهو في أوجه قبل الإسلام، لا بد أن نلم بطرف من أعمال عبد المطلب بن عبد مناف الذي قام بإعادة تنظيم شئون الحج وربطه بدورة الأسواق، وأشرك فيه كافة القبائل فزاد إقبال الحجيج على مكة وازدهرت أسواقها، وتجمع مصادر التاريخ العربية على أن المطلب بن عبد مناف قام بأمر مكة بعد موت أخيه هاشم وكان من أكثر إخوة هاشم اجتهاداً في إتمام عمل أخيه، مع أنه كان أصغرهم سناً فيما يقول الطبري، وهو الذي أخذ العصم من الحميريين، فتنازل لابن أخيه هاشم الذي كان يسمى شيبه (وغلّب عليه اسم عبد المطلب) عن الرفاة والسقاية لما أنس فيه مخايل النجاسة ووجد عنده استعداداً لتحمل المسؤولية، فتولي الأمر، فلم يزل ذلك بيده وهو يطعم الحجاج ويسقيهم، وعندما حفر زمزم سقاها منه؛ ويعد حفر زمزم من أبرز أعمال عبد المطلب فقد كان كجده قصي يتمتع بموهبة التعرف على مواقع الماء الأمر الذي أعانه على السيادة والرئاسة .

نظر عبد المطلب بعد أن صارت له الرفاة والسقاية والندوة بأمر الكعبة فوجد أنها محج العرب، يجتمعون فيها للحج والتجارة بعد الأسواق، ولاحظ أن العرب حريصون على الحج إلى البيت ولكن مناسك الحج كانت موزعة بين قبائل مختلفة فرأى عبد المطلب أن يجمع ذلك كله في يده فاتفق مع خزاعة وبعض بطون كنانة على أن يتولي هو وبنوه بالاشتراك معهم الإشراف على شئون الحج كلها فتم له ذلك؛ وقام بتنظيم أمر المناسك في عرفات ومزدلفة ومنى وحراسة الطرق من العقبة حتى مكة، وهي المنطقة المعروفة بالمحصب أو خيف كنانة أو بطحاء مكة حيث كانت تنزل بعض بطون كنانة. كان عبد المطلب ذكياً لا يدخل في نزاع مع قبيلة مادام يصل في نهاية الأمر إلى ما يريد وهو الإشراف الأعلى، فضبط أمور الحج وقدم للحجاج الماء في عرفات ومزدلفة ومنى. والغالب أن عبد المطلب هو الذي جعل كل قبيلة تضع عند الكعبة صورة من وثنها أو معبودها فتحتج إليه عند إمامها بمكة في الموسم وتؤدي إليه مناسكها فكانت فكرة عبد المطلب في وضع صور من تلك الأوثان أو رموز لها حول الكعبة فكرة صائبة.

صار الحج إلى الكعبة حجاً لقبائل العرب جميعاً، بعد انتهاء الأسواق في ذي الحجة من كل عام فازداد جاه قريش نتيجة لذلك وانضم إلى عناصر قوتها عنصر الدين بالإضافة إلى التجارة وحسن السياسة والاجتهاد في كسب ود القبائل بفضل قصي وابنه عبد مناف وأحفاده المجبرين (هاشم وإخوانه). وبذلك يكون عبد المطلب قد خطا الخطوة الحاسمة في بناء مجد مكة وجاهاها بين القبائل، وهذا ما ذهب إليه ابن اسحق في قوله عنه: " فكان أمره في قومه من قريش في حياته ومن بعده كالدين المتبع لا يُعمل بغيره "

من الأحداث الجسام التي وقعت بمكة على عهد عبد المطلب غزو أبرهة الحبشي للحجاز عازماً هدم الكعبة، واجتاح بالفعل بعض المناطق حول مكة واستولي على إبل قريش وفيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هشام وهو يومئذ كبير قريش وسيدها فهبت قريش وكنانة وخزاعة وهذيل وأحلافهم من الحمس لقتاله وعندما وجدوا أن لا طاقة لهم به تركوا ذلك وعندما التقى عبد المطلب أبرهة الحبشي لم يفأوضه إلا على الإبل التي استاقها فاستصغره أبرهة الحبشي لعدم دفاعه عن البيت الحرام وقال يومها قولته المشهورة "إن للبيت رب يحميه" وانصرف عبد المطلب إلى قريش وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز بشعب الجبال تخوفاً عليهم من معرفة الجيش، ثم قام فأخذ بحلقة باب الكعبة يستنصر الله على أبرهة وجنده وهو يرتجز:

لا هم إن المرء يمنع رحله فامنع رحالك

لا يغلبن صليبيهم ومحالهم عدوا محالك

أهلك الله جيش أبرهة بالطير الأبابيل التي ترمي بحجارة من سجيل فنجت مكة وحرمتها من التخريب على يد أبرهة بفضل الله سبحانه وتعالى وعادت قريش تواصل صعودها، بعد أن عرف زعمائها كيف ينظمون أمر تجارتها ويربطون بينها وبين العبادات الوثنية فلم تعد مكة سوق الجزيرة الأكبر فحسب بل محجها الأكبر أيضاً، وقد أحسنوا سياسة أمورهم فزاد توافد الناس على بلدهم للحج والتجارة والاستمتاع وتناشد الأشعار والتعارف فتقاربت الألسن وارتفع شأن اللغة العربية.

المبحث الثالث: الأحلاف القرشية:

قامت قريش بإبرام عددٍ من الأحلاف في سبيل توطيد دعائم السلم والأمن بمكة وما حولها، بل وفي سائر جزيرة العرب على الرغم من حذرهم الشديد في عقد أحلافٍ قد تجرّها إلى حربٍ يهدد تجارتها، ومن هذه الأحلاف حلف قريش مع الأحابيش وحلف الفضول نعرض لهما هنا لدورهما المهم في حفظ السلام وتأمين التجارة.

حلف الأحابيش:

يورد اليعقوبي خبراً طويلاً مفاده أن عبد مناف صار رئيساً لمكة بعد أبيه قصي واجتهد في إكمال عمله السياسي بتأليف القبائل وعقد الاتفاقيات وإبرام الأحلاف، ومن ضمنها حلف الأحابيش الذائع الصيت، فجاءته خزاعة وبعض بطون كنانة يسألونه الحلف ليعزوا به فعقد معهم حلف الأحابيش وكان مدبر بني كنانة يومئذ هو عمرو بن هلال بن معيض بن عامر وكان تحالف الأحابيش على الركن: يقوم رجلٌ من قريش وآخر من الأحابيش فيضعان أيديهما على الركن فيحلفان بالله وحرمة البيت والمقام والشهر الحرام على التعاهد والتعاون والتناصر على كل من كادهما من الناس جميعاً حتى يرث الله الأرض ومن عليها وقبائل كنانة التي دخلت في تكوين حلف الأحابيش هي عضل وديش والقارة والهون بن خزيمة وبنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة ومن خزاعة الحيا والمصطلق حلفاء بني الحارث بن عبد مناة

زعم المستشرق هنري لامانس في دراسة له أن الأحابيش هم قوةٌ من الأحباش أو السود كانت قريش تستعين بهم في حروبها وخفارة قوافلها التجارية، ولكن الأحابيش ليسوا أحباشاً وإنما هم بعض قبائل العرب معظمهم من كنانة وخزاعة انضم بعضهم إلى بعض وتحالفت للدفاع عن نفسها، وأطلق عليهم اسم الأحابيش لأنهم تحبش بعضهم إلى بعض أي تجمعوا والأحبوشة هي الجماعة من البدو ينضم بعضهم إلى بعض ويكونون قوةً واحدةً للأمن والإغارة والتعاون، بقي الأحابيش دائماً إلى جانب قريش لأنها اجتهدت في إرضاءهم ونجدٌ لهم ذكراً ومآثر في جميع النزاعات والاصطدامات التي شنتها قريش ضد المسلمين ففي صلح الحديبية كان لرئيسهم شأنٌ في المحادثات التي دارت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل مكة، كما حاربوا إلى جانب قريش يوم بدر وأحد الأحزاب وفتح مكة وفي الإسلام كان لهم دورٌ محمود في تأييد أبي بكر عند الردة وكان زعماء قريش يستوصون بهم خيراً إلى أيام خلافة معاوية بن أبي سفيان.

وكان للأحابيش سادات يديرون شئونهم منهم ابن الدغنة ربيع بن رفيع بن حيان السلمي الذي أجاز أبا بكر وشهد معركة حنين والحليس بن علقمة الذي كان يتمتع بمنزلة رفيعة بمكة وكان من رؤساء حرب الفجار ورئيس الأحابيش يوم أحد وقد ورد ذكره في خبر الحديبية عندما أوفدته قريش لمفاوضة الرسول صلى الله عليه وسلم فلما رأي هدي المسلمين في قلاته عرف أنهم لم يأتوا لحرب ورجع إلى قومه طالبا منهم أن يخلوا بين المسلمين وما أرادوا من نسك فقالوا له: إنك رجلٌ أعرابي لا علم لك فغضب وهددهم بتمزيق أوصال حلف الأحابيش فأسرعوا لإرضائه حتى سكن غضبه.

يعتبر حلف الأحابيش إنجازاً قرشياً مهماً خدم مصالح قريش التجارية وتوطدت به دعائم السلم المكي وقويت به شوكة قريش تماماً كما كان الشأن مع نظام الحمس وقريش الظواهر وأحلاف القرشيين الأخرى مع سادات القبائل ولا يفوتني أن أذكر هنا أن السقاية والرفادة التي كان سادات قريش يولونها جل اهتمامهم وينفقون فيها طيب مالهم، ما هي في جوهرها إلا حلفٌ كبير يتجدد كل عام مع كافة قبائل العرب.

حلف الفضول:

حلف الفضول من الأحلاف المهمة التي يذكرها أهل السير والأخبار في تاريخ مكة وقد عقد في السنة التي وقع فيها الفجار الذي حضره الرسول صلى الله عليه وسلم وهو ابن عشرين سنة، وعليه يكون قد عقد سنة 590 ميلادي؛ ويذكر أن الذي دعا إليه هو الزبير بن عبد المطلب وندب إليه أهل الفضل من قريش فشده بنو هاشم وبنو المطلب وبنو أسد وبنو زهرة وبنو تيم في دار عبد الله بن جدعان. ويذكر أنهم تعاهدوا على أن يكونوا مع المظلوم بمكة حتى يؤدي إليه حقه وفي التأسى في المعاش وقيل إن قريشاً تعاهدوا فيما بينهم على مواساة أهل الفاقة ممن ورد مكة بفضل أموالهم وتعاهدوا ألا يقر ببطن مكة ظالم كما قال الشاعر:

إن الفضول تحالفوا وتعاهدوا ألا يقر ببطن مكة ظالمٌ
أمرٌ عليه تعاهدوا وتوثقوا فالجار والمعتز فيهم سالمٌ

ذكر أهل الأخبار أن الغاية من الحلف هي إنصاف المظلومين من الضعفاء والمساكين من أهل مكة ومن لا يجد له عوناً يحميه ويدافع عن حقوقه من الغرياء الوافدين على مكة من حجاج وتجار، فلم تكن مكة تخلو من أناس بطرين يستهينون بالضعيف ولا يعفون عن هضمه وسلبه تارةً بغبنهم في الثمن وتارةً بمظلمهم بالديون وآونةً بغشهم وأخري بالاستهتار بهم، ولقد ازدادت مثل هذه الحوادث في أواخر القرن السادس الميلادي حتى خشي على البلد الحرام أن يفشو له ذكر سيء فسعي الأشراف بعضهم إلى بعض وعقدوا حلف الفضول ونصبوا أنفسهم لحمايته.

ويروون أن السبب المباشر لعقد هذا الحلف أن رجلاً من أهل اليمن باع سلعة إلى أحد كبار تجار قريش فظلمه بالثمن فأوفي على جبل أبي قبيس رافعاً عقيرته وقريش في أنديتها فذكر ظلامته في شعر له:

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائي الدار والنفر
ومحرمٌ أشعثٌ لم يقض عمرته يا للرجال وبين الحجر والحجر
إن الحرام لمن تمت مكارمه ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فاهتم للأمر أهل الفضل من قريش وعلى رأسهم الزبير بن عبد المطلب الذي لم يهدأ له بال حتى رُدَّت ظلامة المظلوم ونشط بعد ذلك في عقد حلف الفضول على الصورة التي تقدم وصفها. وقد شهد هذا الحلف رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فتى، ولما أكرمه الله بالرسالة حمد أثره وكان به مغتبطاً ورووا عنه قوله: "لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم ولو أدعي به في الإسلام لأجبت، لا يزيده الإسلام إلا شداً".

يعد حلف الفضول بمقدماته ونتائجه إنجازاً قرشياً مهماً لردع العابثين بإستراتيجية قريش القائمة على بسط الأمن وحراسته. وتبرز أهميته في أنه حفظ سمعة قريش وصان ازدهار أسواق مكة وأسبغ عليها ثوباً من الإنصاف والأمن وحماية الضعيف بعد أن كاد عقد الأمن فيها ينفطر وكادت حوادث الاعتداء على حقوق الضعفاء أن تزعزع ثقة الأعراب وتجار

النواحي في أسواق مكة. وقد نظمت قريش أمر حلف الفضول فاهتمت به كل الاهتمام ولم ينقطع أثره في الإسلام. فيروي ابن هشام أن الحسين بن علي والوليد بن عقبة بن أبي سفيان والي المدينة من قبل معاوية تنازعا في مالٍ بينهما غصبه الوليد فدعا الحسين بن علي بحلف الفضول فهب نفرٌ من أشرف قريش لنجدته فخاف الوليد مغبتها وأنصف الحسين بن علي من حقه وهكذا كان حلف الفضول إضافة هامة لنظام السلم المكي تدل على بعد نظر القرشيين ومدي تمسكهم بمكانتهم الاقتصادية والأدبية خاصةً بعد أن خرجوا بتجارته من المحيط المحلي إلى النطاق العالمي مسنودة باتفاقيات الإيلاف وما تطلبته من توثيق العري مع الكيانات السياسية التي كانت قائمة آنذاك، وزعماء القبائل والعشائر وتوظيف الدين وردع العابثين بإستراتيجية قريش في صنع وحفظ السلم.

الخاتمة:

بعد أن استقرت قبيلة قريش في مكة المكرمة واحترفت التجارة وطورت النظام القبلي في حكومة الملأ، أدارت المدينة المقدسة إدارة جماعية وأرست قواعد الأمن، سخرت كل شيء لخدمة التجارة باعتبارها سبيل كسب العيش الوحيد في تلك البيئة الصحراوية القاحلة. ولكي تزدهر التجارة كان لابد من استتباب الأمن وسيادة السلام، ولم تكن البيئة الحجازية القبلية في ذلك الوقت موطأ لمثل هذه المفاهيم، فسان جزيرة العرب آنذاك بدو لا يعرفون إلا قانون الغاب، والحياة كلها دامية بين الناب والمخلب وكان على قريش أن تبحر في هذا العباب بخطة إستراتيجية لصنع السلام وحفظه.

تمكن القرشيون فعلاً بعد منتصف القرن الخامس الميلادي، أي قبل قرنٍ من البعثة النبوية من رسم خطة إستراتيجية لصنع السلام وحفظه عندما اتفقوا على إدارة كياناتهم إدارة جماعية وتوصلوا عبر إيلافٍ داخلي إلى نوعٍ من التكافل بين العشائر القرشية فخلطوا غنيهم بفقيهم فأصبحوا في مجملهم تجاراً خطاء كما يقول الجاحظ ، ثم ألفوا القبائل بإشراكها في مشاريع تجارية وتوظيف الدين ليتسع لكافة القبائل العربية وعن طريق الأحلاف والمصاهرات تمكن القرشيون من توسيع نطاق الأمن وبالتالي توسيع نطاق تجارتهم فأصبحوا وسطاء في التجارة العالمية بين الشرق والغرب برحلات إيلاف قريش الذائعة الصيت، وكانت إستراتيجية القرشيين على غير مثالٍ مثل لهم وأتت أكلها وتبوأ قريش مرتبةً مرموقة بين القبائل العربية حتى قيل لمن ملك زمار؟ فأصبحت الإجابة لقريش التجار، بعد أن كان لحمير الأخيار وفارس الأحرار ومازالت قريش تثب نحو المجد حتى اختار الله تعالى رسوله الخاتم منهم فتركت في أذن الدنيا دويماً مازالت أصداءه تسمع.

النتائج والتوصيات:

خرج الباحث بالنتائج التالية:

1. أن السلام والأمن ضروريان لازدهار التجارة ونمو الحضارة.
2. ابتدعت قريش إستراتيجية خاصة بها لصنع السلام وحفظه.
3. طبقت قريش هذه الإستراتيجية بنجاح في جميع مراحل تطورها منذ قيام الكيان القرشي وحتى انتشار الإسلام.
4. جني القرشيون ثمار هذه الإستراتيجية استقراراً وسلاماً وأمناً ورخاءً تميزت به قريش على سائر القبائل العربية.

يوصي الباحث بما يلي:

1. لا بد من دراسة تاريخ العرب الاقتصادي والاجتماعي قبل الإسلام لأنه أهمل طويلاً برغم أهميته البالغة.
2. توجيه الباحثين لتكثيف البحث في إيلاف قريش ومقاليده تجارة العرب قبل الإسلام للكشف عن جوانب هذا الموضوع المهم وتأثيره المباشر كأحد مكونات الحضارة الإسلامية.
3. توجيه الباحثين في الدراسات التاريخية للعناية بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في إطار التاريخ العام.

المصادر والمراجع:

- (1) سعيد الحربي، معالم الجزيرة وأماكن الحج والمناسك، تحقيق حمد الجاسر - دار اليمامة الرياض، 1969 ص 19-21
- (2) محمد بن عبدالله الأزرق، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، دار الأندلس 1967، 22/2
- (4) الحربي، معالم الجزيرة، مصدر سابق ص 39
- (5) هشام بن الكلبي، كتاب الأصنام، القاهرة 1956 44-45/1
- (6) الأزرق، أخبار مكة، مصدر سابق ج 2 ص 52
- (7) ابن رسته، الأعلام النفيسة، ط بريل ليدن 1991 53/1
- (8) المصعب الزبيري، نسب قريش، تحقيق ليفي بروفينسيال، دار المعارف - القاهرة 1923 66/3
- (9) ابن حبيب، المنمق في أخبار قريش، تحقيق خورشيد أحمد فاروق، المطبعة العثمانية 1963 22/1
- (10) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، طبعة بولاق 1348 17/1
- (11) الهمداني، صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد علي الأكوع، دار اليمامة - الرياض 1973 173/2
- (12) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق أحمد الفضل إبراهيم، القاهرة 1979 74/2
- (13) C M Douthy, Travels in Arabia Deserts, Cambridge 1888 Vol.2 p.102
- (14) الفاسي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، القاهرة 1956 247/1
- (15) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، مصدر سابق 76/2
- (16) مرتضى الزبيدي، تاج العروس في شرح جواهر القاموس، القاهرة 1356 هـ، مادة مكة 26/9
- (17) ابن هشام، السيرة النبوية، السيرة النبوية، القاهرة 1936 225/3
- (18) ابن حبيب، كتاب المحبر، تحقيق ليزا لينستشرون، حيدر اباد 1942، 40/1
- (19) الفاسي، شفاء الغرام، مصدر سابق، 261/1
- (20) أحمد إبراهيم الشريف، دور الحجاز في الحياة السياسية، القاهرة 1951، ص 168
- (21) Dozy, encyclopedia of Islam, Leyden 1931m Vol.7 p.311

- De Gaury, Rulers of Mecca, London 1951, p.143-144(22)
- (23) الالوسي، بلوغ الأرب، القاهرة 1934، 202/1
- (24) ابن الكلبي، كتاب الأصنام، مصدر سابق، 282/2
- (25) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، القاهرة 1956، 15/7
- (26) ابن حبيب، كتاب المحبر، مصدر سابق، 159/1
- (27) H.Gibb, Arabic lit., London 1923, Vol.1 P.259
- (28) حمد الجاسر، طرق الحجاز، مجلة الدارة- الرياض 1984، 94/2
- (29) بندلي دوزي، بحث مجمع اللغة العربية، بغداد 1971، 230/3
- (30) الجاحظ، الرسائل، مصدر سابق
- (31) ابن هشام، السيرة النبوية، مصدر سابق، 108/1
- (32) الجاحظ، رسائل الجاحظ، مصدر سابق، 279-277/2
- (33) السهيلي، الروض الأنف، مصدر سابق، 155/4
- (34) القاسمي، شفاء الغرام، مصدر سابق، 213/1
- (35) ابن هشام، السيرة النبوية، مصدر سابق، 117/1
- M. Neibour, Travels Throw Arabia, Edinburgh 1972 P.26(36)
- (37) إبراهيم بيضون، الايلاف القرشي، مرجع سابق، ص 61
- (38) الهمذاني، صفة جزيرة العرب، مصدر سابق، 214/2
- (39) الالوسي، بلوغ الأرب، مصدر سابق، 227/1
- (40) ابو الفرج الأصفهاني، كتاب الأغاني، القاهرة 1971، 121/9
- (41) سورة النور، آية 37، انظر البرهان في علوم القرآن للإمام الزركشي، ط- دارا التراث- القاهرة 1957، 151/1
- (42) البخاري، الجامع الصحيح، ط- ليدن 1863، 13/9
- (43) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ط-4- القاهرة 1979، 134/2
- (44) السهيلي، الروض الأنف، مصدر سابق، 361/1
- (45) ابن هشام، السيرة النبوية، مصدر سابق، 248/1
- (46) ابن الكلبي، كتاب الأصنام، مصدر سابق، 142/3
- (47) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مصدر سابق، 126/1
- H.Lammense, Les Alahabish et L'Organisation Militaire de La Meque, Journal Asiatique, (48)
- 1916 AD

- (49) ابن منظور، لسان العرب، بيروت 1963، مجلد 2 مادة تحبش
- (50) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت 1981، 4/199
- (52) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، مصدر سابق، 3/252
- (53) القالي، ذيل الأمالي، مصدر سابق، 2/118
- (54) نفسه، 2/131
- (55) البخاري، الجامع الصحيح، ط-بريلدن 1862 نسخة مصورة، 5/217
- (56) ابن هشام، السيرة النبوية، مصدر سابق، 1/187
- (57) نفسه، 1/203
- (58) الجاحظ، رسائل الجاحظ، مصدر سابق، 2/79
- (59) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مصدر سابق، 2/129